

تاريخ
الحركة السنوية
في أفريقيا

القسم الثاني
سيرة التعميم
محمد المهدي السنوسي وأحمد الشريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70، 71].

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

هذا الجزء الثاني من الكتاب السابع يتحدث عن الحركة السنوسية في ليبيا وقد سميته «الحركة السنوسية في ليبيا وأثرها الدعوي والجهادي وسيرة الزعيمين محمد المهدي وأحمد الشريف».

إن غربلة التاريخ، وحفظه من التزوير، وكشف الأكاذيب التي دسها أصحاب الأغراض الخبيثة الذين عملوا على تشويهه، وتزويره، وتشكيك الأجيال في سير أبطالهم، وقدوتهم، لعبادة عظيمة يحبها المولى ﷺ الذي من أسمائه الحسنی العدل، والحق إن الأبناء يحفظون لزعماء بلادهم، وصانعي تاريخها، أعمالهم العظيمة، وجهادهم الشاق، ودعوتهم المخلصة مع الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

لقد اطلع مجموعة من المفكرين، والمختصين بشؤون الدعوة، والمهتمين بأمر التاريخ على سيرة الإمام محمد بن علي السنوسي، فنالت إعجابهم، وأشادوا بالأسس التي قامت عليها الحركة السنوسية من إيمان عميق، وإخلاص لله، وعلم غزير، وجهاد متواصل، وأشاروا إلى

أهمية نشر مثل هذه المعلومات؛ لأنها تساهم في توعية الأجيال بحقائق مهمة في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

وفي هذا الجزء من هذه الدراسة نحاول أن نتعرف على سيرة إمامين من أئمة الدعوة السنوسية؛ محمد مهدي السنوسي، وأحمد الشريف السنوسي.

فالإمام محمد المهدي يعتبر الزعيم الثاني للحركة السنوسية وكانت سيرته مليئة بالدروس والعبر والعظات، وتوسعت الحركة في زمنه أكثر من أربعة أضعاف ما كانت عليه وحققت انتصارات عظيمة للإسلام في إفريقيا، بسبب إخلاصه لله، وصدقه في الدعوة، وتفانيه في العمل، وشجاعته النادرة، ورجولته الصادقة، وسيره الرشيد المستمد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، لقد نمت الحركة السنوسية في عهد المهدي حتى بلغت ذروة نموها وانتشارها، وكانت فترة قيادته أكثر من أربعين عاماً، فكانت هذه المدة الطويلة فترة استقرار وانتشار للدعوة، ويمكن تسميتها بالعصر الذهبي للدعوة السنوسية.

وكان المهدي بعيد النظر، شديد الرأي، شديد العزم على إتمام البناء الذي شيده والده ابن السنوسي، فواصل مسيرة والده في إنشاء الزوايا، وإرسال الدعاة والعلماء إلى قبائل إفريقيا، فدخلوا النيجر والكنغو والكامرون وجهات بحيرة تشاد، وعمل على ذبوع الدعوة عن طريق وادي، وبرنوا، وكاتم، والداهومي وغيرها.

لقد تغلغلت الحركة السنوسية بقيادة المهدي السنوسي في قلب إفريقيا من البحر المتوسط شمالاً، إلى قلب السودان الغربي جنوباً، بحيث كانت تنتشر الوثنية، وتوفيق الله تعالى، ثم هذه الجهود العظيمة دخل عدد كبير من الزنوج في الدين الإسلامي، وخرجت عدة قبائل وثنية من مهاوي الكفر بدرجة لا يتصورها العقل، وفي هذا يقول الشاعر:

كانت طريقته القيام بسنة	نبوية لألاء الأوصاح
فله من الخدمات للإسلام	يعلو على متناول الشراح
يكفيه نشر الدين في الآلاف من	أقصى حدود «تشاد» حتى «الواح»
نصر لدين الله بين مجاهل	صعبت على الرواد والسياح
فازوا من الفتح المبين بعزة	الإسلام بعد عبادة الأشباح

لقد بسطت الحركة السنوسية في زمن المهدي سلطانها الروحي على أقاليم كثيرة في إفريقيا، وحققت نجاحات كبيرة في أوساطها، وفي قلب الصحراء الكبرى، وكانت عقبة كأداء في طريق الرسائل المسيحية التنصيرية، التي وجدت في أتباع السنوسية خصوماً عنيداً، عطلوا عليها أعمالها لدرجة بعيدة.

لقد كانت سيرة محمد المهدي السنوسي، روحها إيمان عميق بالله، وحب شديد لدعوته

الخالدة، ورغبة أكيدة في الشهادة في سبيله، وجهاد مرير لأعداء الإسلام، وصبر لا ينفد في مجال الدعوة، ومجالدة دول الاستعمار بالبناء المتين، والتربية الشاملة، والإعداد المتوازن في كافة المجالات.

لقد اتصف محمد المهدي بصفات القادة الربانيين، من سلامة المعتقد، والعلم الشرعي، والثقة بالله، والقدوة الحسنة، والصدق والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن اختياره لمعاونيه، والتواضع، وقبول النصح، والحلم، والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإرادة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم، وإعداد القادة، وإيمان بالله عظيم.

لقد انعكست ثمار الإيمان بالله على جوارحه، وتفجرت صفات التقوى في أعماله، وسكناته وأحواله، واستطاع بتوفيق الله تعالى الانتقال بالحركة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، ورؤية واضحة، ومعرفة حقيقية للظروف المحلية والإقليمية والدولية التي تحيط به:

كانت معالمها كسيرة جده	إحياء دين وانتشار صلاح
أعمال مجتهد بخالص نية	للخير منتصر بغير سلاح
لو كان عن شيء لغير الله في	أعماله ما كللت بنجاح
إذ لا يدوم سوى الذي هو نافع	للناس مرتفع عن الأرباح
ومن الكرامة للولي نجاحه	في النصح بالإقناع والإفصاح
والمرء لا يعجبك منه ما سعى	بل ما نوى في السعي من إصلاح
فإذا استوى علم وحسن عقيدة	كان النجاح حليف كل طماع
إن العقيدة لا يصح يقينها	إلا بفعل ظاهر وصراح
فإذا أحب الله باطن عبده	ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت له نية مصلح	مال العباد إليه بالأرواح
هذي صفات السيد «المهدي» ولا	والله ما بالغت في الإيضاح

إن هذا الجهد المتواضع يحاول أن يجيب القارئ الكريم عن الكثير من الأسئلة التي تتعلق بسيرة محمد المهدي السنوسي: كيف طلب العلم؟ وكيف تولى زعامة الحركة؟ وهل كان له مجلس شورى؟ وهل تطورت مؤسسات الحركة السنوسية في عهده؟ وما أسباب نمو الحركة؟ وهل كان هناك اهتمام خاص في زمنه بالمنهج التربوي الجهادي؟ ولماذا هذا الاهتمام؟ وما موقف الدول الأوروبية من الحركة السنوسية؟ وما موقف محمد المهدي السنوسي من الثورة العربية في مصر، وثورة محمد أحمد في السودان؟ وما موقفه من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية؟ وما الأهداف من رحلاته وانتقالاته إلى الكفرة ثم قرو؟ وما حقيقة الصراع بين فرنسا والحركة السنوسية؟.

هذه الأسئلة وغيرها يحاول الكتاب أن يجد لها إجابات مقنعة من خلال البحث التاريخي .

أما سيرة الزعيم الثالث للحركة السنوسية السيد أحمد الشريف السنوسي ، فيجد القارئ شيئاً من سيرته في هذا الكتاب الذي يحاول أن يعرف أبناء الأمة عموماً وليبيا خصوصاً بهذا السيد الصنديد والعالم الجليل ، والعايد الخاشع ، والمجاهد الشجاع ، والمهاجر الحزين بقصته الدعوية ، وسيرته الجهادية ، وأعماله البطولية سواء ضد فرنسا في تشاد والنيجر ومالي وجنوب الجزائر، عبر الصحراء الكبرى ، أو ضد إيطاليا في ليبيا أو بريطانيا في مصر، لقد قال في حقه الشيخ الطاهر الزاوي : «فالسيد أحمد رجل صقله العلم، وهذبته العبادة، فعفت نفسه، وكبرت همته، وانكشمت يده عما للناس فيه حق أو شبه حق، وأخلص عمله فتولى الله توفيقه، وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه» .

وقال فيه شكيب أرسلان : « . . . فالسيد أحمد الشريف السنوسي هو خاتمة مجاهدي الإسلام إلى هذا الوقت، قد سبقه الشيخ شامل الداغستاني الذي قاوم الروسية أربعين سنة، والأمير عبد القادر الجزائري الذي ناهز فرنسا 17 سنة وتبعه في الجهاد واقتدى بسيرته محمد عبد الكريم الخطابي الربي الذي كانت مقاومته قصيرة ولكنها عريضة توافق فيها دولتي فرنسا وإسبانيا معاً وجهاً لوجه وزلزلتا في حربه زلزالاً شديداً، ولولا السيد أحمد الشريف . رحمه الله . لكانت إيطاليا استصفت قطري طرابلس وبرقة من الشهر الأول . . . » وقال أيضاً : « . . . ولم يكن في قلبه شيء من الدنيا بجانب الآخرة، وكان جميع حطام هذا العالم لا يوازي عنده جناح بعوضة في جانب الواجب الإسلامي، وهذا الرجل هو السيد السنوسي الكبير الذي لولاه لم يكن أنور قدر أن يعمل شيئاً ولا كانت الدولة العثمانية قدرت أن تدافع عن طرابلس شهراً واحداً، وما كان المرحوم الشهيد البطل الفريد عمر المختار إلا حسنة من حسنات السيد أحمد الشريف، وقائداً من قواده . . . » وقال أيضاً : « . . . إن السيد أحمد الشريف هو بنفسه أمة، وإن سيرة السيد أحمد الشريف هي بذاتها تاريخ، وإن كل من عرف عن كذب ذلك السيد الغطريف علم من أخلاقه وروعه وحلمه وزهده في الدنيا ووجه لمعالي الأمور وعزوفه عن سفاسفها ومواساته للفقراء وحنانه على الضعفاء وشدته مع ذلك في الدين، وانحصار كل همومه في استتباب أمر المسلمين ومحافظة على الفرائض والسنن وغير ذلك من الأخلاق العالية والهمم الشماء والمنازل القعساء ما يذكر بأخلاق الصحابة الكرام بل يشبه من أخلاق الخلفاء الراشدين العظام . . . » وقال في حقه أيضاً : « . . . ولم يكن للسيد غرام في الدنيا إلا بأمر هذه الأمة، ولما سألته عند اجتماعنا في مكة عن أولاده الذين تركهم أطفالاً أجنبيي : قد صاروا الآن رجالاً، وما أنا بمفكر في أمرهم؛ إنما يهمني أمر هذه الأمة المعذبة في طرابلس، وكان في قلبه من أمر طرابلس ما لا يعلمه إلا الله، ولكنه كان في إيمانه في ثبات الجبال، وكان يرى في هذه المصائب مقدمات يقظة الإسلام . . . » .

وقال عنه أنور باشا القائد التركي المشهور في جهاده ببرقة: «... رسائله تشكل بصورة واضحة أهمية كبيرة بالنسبة لي كرمز للصدقة؛ لأنه الشخص الوحيد الذي يتمتع بتأثير سلبي أو إيجابي في هذه الحرب...».

في هذا الكتاب سيجد القارئ ما قاله المؤرخون في حق أحمد الشريف، وهل هو صواب أم خطأ؟ ويجد إجابات لكثير من الأسئلة المتعلقة بسيرته: كيف تولى أحمد الشريف زعامة الحركة السنوسية؟ وهل خاض بنفسه الحروب ضد فرنسا؟ ومن هم القادة الذين كانوا معه؟ وما موقفه من الغزو الإيطالي؟ وهل وقف مع الأتراك ضد الغزو؟ وهل وافق على الصلح الذي تم بين تركيا وإيطاليا؟ وما موقف الزوايا السنوسية من الاحتلال الإيطالي؟ وهل تفاعل العالم الإسلامي مع جهاد ليبيا؟ وهل دخول أحمد الشريف في حرب بريطانيا في الأراضي المصرية كان صحيحاً من الناحية العسكرية والسياسية؟ وما أسباب هزيمة أحمد الشريف أمام بريطانيا في الجبهة الشرقية؟ وما حقيقة الخلاف بين إدريس السنوسي، وأحمد الشريف؟ وما آثار حملته ضد بريطانيا على حركة الجهاد؟ وما الأسباب الرئيسية في سفره إلى تركيا؟ وكيف ومتى وصل إلى تركيا؟ وما موقفه من مصطفى كمال؟ وهل عرض عليه مصطفى كمال منصب نيابة الخليفة؟ وهل شارك في جهاد الأتراك ضد اليونان؟ ولماذا طرده مصطفى كمال من تركيا؟ وإلى أين هاجر، وكيف كان استقبال الملك عبد العزيز آل سعود له؟ ومتى توفي؟.

نعم أسئلة كثيرة يحاول الكاتب أن يجيب عليها في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

لقد وفقني الله تعالى للجمع والترتيب والتحليل، فإن كان خيراً، فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فإنني عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد، والرد والتعليق، والتوجيه، كما أقرر بأنني قد استفدت كثيراً من الجهود التي سبقتني، ككتاب «الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى» لمصطفى علي هويدي، و«جهاد الأبطال»، للشيخ طاهر الزاوي، و«حركة الجامعة الإسلامية»، لأحمد فهد الشوابكة، و«الغزو الإيطالي لليبيا» لعبد المنصف البوري، و«تاريخ ليبيا المعاصر» لمحمود عامر، و«حروب البلقان» لعائض الروقي، و«برقة العربية» لمحمد الطيب الأشهب، و«المهدي السنوسي» لمحمد الطيب الأشهب، و«الحركة السنوسية» للدجاني، و«الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية» لعبد القادر بن علي، وغيرها من الكتب، وقد دونت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه في هامش الكتاب للأمانة العلمية، واعترافاً بجهود الذين سبقوا، كما أنني انتهجت منهجاً دعوياً تاريخياً يعتمد على توسيع النقاط البيضاء المشرقة، وتضييق النقاط السوداء المظلمة، مساهمة مني في علاج الهزيمة النفسية التي يمر بها شعبنا المظلوم ومتضرعاً لله تعالى الحي القيوم أن يحيي شعبنا وأمتنا بالإيمان والقرآن وسنة سيد الخلق أجمعين.

إن هاتين السيرتين العطرتين تبين لمسلمي ليبيا، أن من أصلاب أجدادهم خرج مثل هؤلاء

الأبطال وعاشوا للذود عن الإسلام ونشره بين الأنام، وبذلوا الأنفس والأموال والغالي والتمين من أجل دينهم وعقيدتهم وإسلامهم، كما تعطي الأمل في نفوس دعاة شعبنا بأن شجرة الإسلام الزكية الضاربة بجذورها في شعبنا من زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكفيلة بأن تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

هذا وقد قمت بتقسيم الجزء الثاني من الكتاب السابع في السلسلة التاريخية إلى مقدمة وفصلين، وخلاصة وهي كالآتي:

الفصل الأول: محمد المهدي ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اسمه، وولادته، وشيوخه، ومبايعته، ومواقفه.

المبحث الثاني: موقف محمد المهدي السنوسي والليبيين من الدولة العثمانية وفكرة الجامعة الإسلامية.

المبحث الثالث: رحلة المهدي السنوسي إلى الكفرة وقرو.

الفصل الثاني: الزعيم الثالث للحركة السنوسية أحمد الشريف، ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: ولادته وتربيته وشيوخه.

المبحث الثاني: تولي قيادة الحركة.

المبحث الثالث: الغزو الإيطالي.

المبحث الرابع: الجهاد في برقة.

المبحث الخامس: الحرب العالمية الأولى.

المبحث السادس: وصول أحمد الشريف إلى تركيا.

ثم الخلاصة.

وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يشيبي على كل حرف كتبه ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يشيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من القارئ الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفوره ومغفرته ورضواته في صالح دعواته.

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الفقير إلى عفوره ومغفرته

علي محمد محمد الصلابي.